عظيماً. وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيرا. الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً ﴾. وقال تعالى [1] ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الكريمات. ومن السور التي للجهاد نصيب موفور فيها سورة الأنفال وسورة براءة وسورة القتال هذه التي نحن بصددها.

من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة تتضح قيمة الجهاد في سبيل الله تعالى وأنه جزء لا يمكن أن يتجزأ بحال من كل مسلم لله رب العالمين.

وقد ختم القسم بقوله تعالى: ﴿ ويدخلهم الجنة عرفها لهم ﴾ وإن الذي يلحق بالشهيد المجاهد في سبيل الله تعالى بقصد أن تكون كلمة الله تعالى هي العليا. إنه إذا كانت من نصيبه الحياة الطيبة في الدنيا لأن هداية الله تعالى ملازمة دائماً وأبداً للمجاهد في سبيله. على نحو ما أشارت الآية الأخيرة من سورة العنكبوت فإن ثواب هذا المجاهد يوم القيامة كبير. وإن كلاً من الشهيد والمجاهد قد عرفه الله تعالى بالجنة يستوي في ذلك الحياة الأولى والحياة الآخرة. وقد فسر البخاري في صحيحه [2] القول: عرفها لهم بمعنى بينها. وجاء في تفسير القرطبي [3]: «وقيل عرفها لهم أي بينها لهم حتى عرفوها من غير استدلال. قال الحسن: وصف الله تعالى لهم الجنة في الدنيا فلما دخلوها عرفوها بصفتها».

---

(١) سورة الصف ٤.

(٢) ٦ - ١٦٧.

(٣) ص ٦٠٥١.

أما التعريف في الحياة الدنيا فعن طريق المعلومات عنها التي تضمنها كل من القرآن الكريم والحديث الشريف. وهؤلاء الشهداء والمجاهدون قمة في الإيمان بالغيب. وأما التعريف بالجنة في الآخرة فلأنهم أعرف بمنازلهم فيها من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم قال معناه مجاهد وأكثر ـ المفسرين [1]. وفي صحيح البخاري ما يدل على صحة هذا القول: عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة. فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله في الدنيا [2]. قال تعالى: ﴿ **فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثختتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها. ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض. والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم سيهديهم ويصلح بالهم. ويدخلهم الجنة عرفها لهم** ﴾.

---

(١) انظر تفسير القرطبي ص ٦٠٥١ وتفسير الطبري ٢٦ ـ ٢٩ والكشاف ٣ ـ ١٢٨.
(٢) تفسير القرطبي ص ٦٠٥١.

القِسمُ الثالِث

الله مولى الّذين آمنوا والّذين كفروا لا مولى لهم

هذا القسم من السورة الكريمة يغلب عليه المقارنة بين المؤمنين والكافرين في طريقة القرآن الكريم الفذة التي تجمع بدرجة من التوازن عجيبة بين إرضاء العقل وإشباع النفس. فللذين آمنوا وعملوا الصالحات ونصروا الله ورسوله، النصر من الله تعالى وتثبيت الأقدام. وللذين كفروا بوحدانية الله تعالى وجحدوا نبوة المصطفى ﷺ وكرهوا ما أنزل الله الخذلان من الله تعالى وضلال الأعمال، وأن تزل بهم في كل المواطن الأقدام. إن المؤمنين أحبوا ما أنزل الله تعالى على رسوله الكريم فامتثلوا الأوامر واجتنبوا النواهي أما الكافرون فإنهم عميت بصائرهم وأبصارهم عن آيات الله تعالى البينات المعنوية والمادية فهم إذا كانت على قلوبهم أقفالها بشأن القرآن الكريم هم في أثناء سفرهم إلى الشام صيفاً واليمن شتاء، يرون العديد من آثار الأقوام السابقين الذين دمر الله تعالى عليهم بسبب تكذيبهم رسل الله تعالى إليهم. ومع ذلك فإنهم يمرون على تلك الآيات وهم عنها معرضون. لأنهم يرونها بأعينهم ولا يرونها ببصائرهم، كي يرعووا عن طريق الضلال الذي يسيرون فيه. وتوشك إذن أن تكون نهايتهم مماثلة لنهاية أولئك المكذبين السابقين.

إن النصر وتثبيت الأقدام إنما كان من نصيب الذين نصروا الله تعالى

ورسوله الكريم والهزيمة والخذلان من نصيب الذين كفروا وكذبوا بآيات الله تعالى لأنه جل وعلا مولى الذين آمنوا دائماً وأبداً. أما الكافرون فلا مولى لهم. وإذا كان ذلك حظ كل من الفريقين في الدنيا فإن الثواب بشأن المؤمنين في الآخرة والعقاب بشأن الكافرين كبير. كل ذلك وفق عمل كل منهما في الدنيا. المؤمنون يعملون الصالحات. والكافرون يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والجنة نصيب المؤمنين والنار مثوى الكافرين.

إن الأولى بكفار مكة أن يرعووا إلى طريق الفلاح والرشاد وأن يعلموا يقيناً أنهم لم يبلغوا في القوة والعتاد معشار ما بلغ الكثير من السابقين الذين دمر الله تعالى عليهم جزاء تكذيبهم واستفزازهم رسل الله تعالى إليهم وحينما حانت ساعة الانتقام منهم لم يكن لهم من ناصر. وبعد تبيين صفات كل من الفريقين ومصيرهم لا يخفى على كل ذي لب من الذي هو على بينة من ربه ومن الذي زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم. وقد تحدثت الآية الكريمة الأخيرة في القسم عن صفة الجنة ومظاهر نعيمها. قال تعالى: **﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم. والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم. ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم. أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها. ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم. إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم. وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم. أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم. مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمرة لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى. ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من**

ربهم كمن هو خالد في النار وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم ﴾.

إن الآيات الثلاث الأول تبين موقف كل من الفريقين من الدعوة إلى صراط العزيز الحميد وما استحقوا في المقابل أن يكون لهم نصيباً قال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم. ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم ﴾. وواضح أن الآية الكريمة الأولى التي تتحدث عن المؤمنين تبدأ بمخاطبتهم ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ وتنبههم في أسلوب الشرط إلى أن النصر سيكون بإذن الله تعالى حليفهم وتثبيت الأقدام نصيبهم، إن هم نصروا الله تعالى باتباع أوامره جل وعلا واجتناب نواهيه. وهذا الشرط معناه أن مجرد الإيمان لا يكفي للظفر على الأعداء. وأن مجرد الإيمان والعمل الصالح ما لم يقرن بمجاهدة أعداء الله تعالى لا يكفي للظفر بتأييد الله والنصر على الأعداء.

إننا في حقيقة الأمر بصدد درس بليغ يلقيه علينا القرآن الكريم إن رغبنا في تأييد الله تعالى ونصره لنا على أعدائنا. إن الإيمان وحده لا يكفي فكيف حينما يكون الإيمان وحده ضعيفاً أو حينما لا يكون ثمة إيمان وإن العمل الصالح يجب أن يكون إيجابياً موجهاً للمعركة التي لا تهدأ مع الأعداء فكيف إذا لم يكن هناك عمل صالح أساساً أو كان هناك عمل سيء بل كيف إذا كان هناك عمل إيجابي ضد الإسلام نفسه من قبل من يسمون بالمسلمين الجغرافيين. كيف يرجى التأييد من الله تعالى وكيف يتوقع النصر. إن مهر النصر من الله تعالى على الأعداء غالٍ جداً. ينبغي أن يبذله المؤمنون المجاهدون مهما غلا بنفوس راضية مطمئنة. ويكفي دليلاً على ذلك جملة فعل الشرط التي تستعمل في الآية الكريمة ثمناً للجواب والجزاء. إن الثمن الذي يبذل، وإن المهر الذي يدفع مساوٍ للمبيع وللحسناء. إنه النصر في مقابل النصر أن ينصر المؤمنون المتقون دين الله تعالى بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله الكريم وتطبيق تعاليم القرآن

الكريم وتعاليم سنة سيد المرسلين والتي تأمر المؤمنين المتقين بأن يجاهدوا في الله حق جهاده.

إن الثمن ليس الجهاد العادي وما أشقه ولكنه الجهاد الذي يستخرج من المؤمن منتهى ما في أعماقه من طاقة يسخرها لخدمة هذا الدين الذي رضي الله تعالى لعباده. والذي يبذل معه المؤمن برضا وانشراح ماله ودمه رخيصاً في سبيل مرضاة الله تعالى. إن كل مؤمن حريص مطالب بأن يجاهد في سبيل الله تعالى حق الجهاد، بلسانه ويده وجوارحه وماله ونفسه وروحه. وإن كل عمل يقوم به المؤمن وهو يريد وجه ربه الأعلى يعتبر محققاً للهدف الذي من أجله خلق الله تعالى الخلق ألا وهو عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، ذلك الهدف الذي نصت عليه الآية الكريمة من سورة الذاريات [1] قال تعالى: ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾ وإن كل مؤمن يقوم بمنتهى ما يستطيع القيام به من أعمال صالحة عليه أن يجعل نصب عينيه هدفاً واحداً هو نصرة هذا الدين الذي رضي الله تعالى لعباده.

وحينما تكون نصرة هذا الدين هي الهدف المشترك لجند الله تعالى فإن وعد الله تعالى بأن يغلب جنده وينصر عباده الصالحين سيتحقق بإذنه جل وعلا، وأن يكون النصر الدائم وتثبيت الأقدام حليفاً لهؤلاء العباد، وليس من الضروري أن يتحقق النصر للجيل الذي ينصر الله تعالى ورسوله فعلى سبيل المثال إذا كان لم يتحقق لملك الإسلام العظيم المجاهد في سبيل الله تعالى نور الدين زنكي استرداد بيت المقدس من الصليبيين، فقد كان يعمل جاهداً من أجل تلك الغاية النبيلة وهو الذي ينصر الله تعالى واثقاً من نصر الله تعالى له وتثبيته لأقدامه بدليل أنه عمل منبر المسجد الأقصى على أمل أن ينقله إلى المسجد الأقصى بعد استرداد القدس الشريف وظل المنبر في مدينة حلب

---

(١) آية ٥٦.

عشرين عاماً [1] عاد بعدها القدس والمسجد الأقصى إلى حظيرة الإسلام على يد الملك المسلم المظفر قاهر الصليبيين الملك المجاهد صلاح الدين الأيوبي. إنه لولا الأعمال المجيدة التي قام بها نور الدين لما استطاع صلاح الدين أن يستعيد القدس الشريف وديار الإسلام من الصليبيين. ولولا الأعمال المجيدة التي قام بها الملك المجاهد عماد الدين لما استطاع نور الدين أن يقطع خطواته التي مكنت صلاح الدين بعون الله تعالى من تحرير القدس وديار الإسلام.

إن طريق الكفاح طويل وشاق، ولا يقوى على تحمل تبعاته الأذلاء للكافرين الخانعون الذين استمرأوا الهوان لكن المسلمون لله رب العالمين الأذلاء على المؤمنين الأعزة على الكافرين الذين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم. إن هؤلاء هم الذين يمنحهم الله تعالى كرماً منه وفضلاً النصر المؤزر على أعدائه ويثبت أقدامهم في كل المواقف قبل النصر وبعده لأن الجهاد مستمر إلى قيام الساعة ولأن الصراع بين الحق والباطل لا يمكن أن يتوقف لحظة من اللحظات بأمر القرآن الكريم. جاء في سورة الأنفال [2] قوله تعالى: ﴿ **إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان** ﴾ وإن المؤمنين المجاهدين يرددون في كل زمان ومكان قوله تعالى [3]: ﴿ **قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين** ﴾ فهل يتربص بنا المرجفون والمثبطون والمنافقون والأعداء سوى إحدى الحسنيين اللتين نتمناهما النصر أو الشهادة؟ وهل يمكن للنصر أن يتم دون أن تبذل الأرواح رخيصة في سبيله جل وعلا؟ قال تعالى: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم** ﴾.

---

(١) انظر خطوات نحو القدس د. عبد العزيز كامل ص ٧٢.

(٢) آية ١٢.

(٣) سورة التوبة ٥٢.

إن أولى الآيات في القسم إذا كانت تتحدث عن نصر الله تعالى للمؤمنين الذين ينصرونه جل وعلا وتثبيت أقدامهم فإن الآية الكريمة التالية تتحدث عن خذلان الله تعالى للكافرين قال عز من قائل: ﴿ **والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم** ﴾ وأول ما يلفت الانتباه هو أن الحديث عن خذلان الكافرين يأخذ بسبب من مظهر نصر الله تعالى للمؤمنين، وتفسير ذلك أنه جاء في الآية الكريمة الأولى عن نصر الله تعالى للمؤمنين القول ﴿ **ويثبت أقدامكم** ﴾ والمراد كما مر بنا تثبيت أقدام المؤمنين في الحرب أساساً، وفيما يتصل بخذلان الكافرين يستعمل التعبير الذي يعني أساساً الدعاء على الكافرين بأن تزل بهم النعل وأن يخروا على وجوههم أعني صيغة الدعاء على الكافرين في القول: ﴿ **فتعساً لهم** ﴾. قال ابن السكيت: «التعس أن يخر على وجهه والنكس أن يخر على رأسه»(١). وتعساً له ونكساً (بضم النون) وقد يفتح ازدواجاً(٢) فالأصل في التعس أن تزل القدم ويتم الانكباب على الوجه. وبما أن هذه الحال تعني في العادة شراً قد يكون مستطيراً لذلك جرى على ألسنة العرب القول «تعساً لفلان أي ألزمه الله هلاكاً»(٣). وكأن هذا النوع من السقوط يرتبط به شقاء قد يصل إلى درجة الهلاك. لذلك قيل إن من معاني التعس بالإضافة إلى الانحطاط والعثار(٤) الشقاء والهلاك(٥) والخزي والبلاء(٦)» «وتعساً له نقيض لعاً له. قال الأعشى:

فالتعس أولى لها من أن أقول لعاً

---

(١) تفسير القرطبي، ٦٠٥٣ والبحر المحيط ٨ ـ ٧٠.
(٢) القاموس «نكس».
(٣) تفسير القرطبي ٦٠٥٣.
(٤) تفسير القرطبي ٦٠٥٣.
(٥) تفسير القرطبي ٦٠٥٢.
(٦) انظر تفسير الطبري ٢٦ ـ ٢٩.

يريد فالعثور والانحطاط أقرب لها من الانتعاش والثبوت»[1].

والذين كفروا مبتدأ والفاء داخلة في خبر المبتدأ وتقديره فتعسهم الله تعساً[2] وتعساً لهم نصب على المصدر بسبيل الدعاء. قاله الفراء مثل سقياً له ورعياً[3] وإضمار ما هو من لفظ المصدر أولى لأن فيه دلالة على ما حذف[4] وكأن كلام أبي حيان هذا يراد به الرد على الزمخشري الذي قال في الكشاف[5] «فإن قلت علام عطف قوله وأضل أعمالهم قلت على الفعل الذي نصب تعساً لأن المعنى فقال تعساً لهم أو فقضى تعساً لهم» وقد جاء في معنى التعس القول عن ابن عباس رضي الله عنهما يريد في الدنيا القتل وفي الآخرة التردي في النار»[6] ورد قوله وأضل أعمالهم على قوله فتعساً لهم وهو فعل ماض. والتعس اسم لأن التعس وإن كان اسماً ففي معنى الفعل لما فيه من معنى الدعاء. فهو بمعنى أتعسهم الله. فلذلك صلح رد أضل عليه لأن الدعاء يجري مجرى الأمر والنهي»[7].

وفي الإمكان القول: إن التعس يتعلق أساساً بالحاضر والمستقبل وإن إضلال الأعمال يتعلق أساساً بالماضي. إن القرآن الكريم يستعير على عادته تعبير العرب في الدعاء على الخصوم بالشقاء والهلاك كفاء كفرهم بالله تعالى وإنكارهم توحيده جل وعلا وبما أنهم استمروا على خطئهم وضلالهم فقد زادهم الله تعالى إلى الضلال ضلالا. وقد عبر عن ذلك بالقول: «وأضل أعمالهم» أي جعل الضلال ملازماً لهم في كل الأعمال التي يقومون بها بمعنى أن التوفيق يتحاشاهم فلا يصادفون في حياتهم نجاحاً ولا فلاحاً.

(١) الكشاف ٣ ـ ١٢٨.
(٢) البحر المحيط ٨ ـ ٧٦.
(٣) تفسير القرطبي ٦٠٥٢.
(٤) البحر المحيط ٨ ـ ٧٦.
(٥) ٣ ـ ١٢٨.
(٦) الكشاف ٣ ـ ١٢٩، والبحر المحيط ٨ ـ ٧٦.
(٧) تفسير الطبري ٢٦، ـ ٢٩.

إن المؤمنين المتقين إنما نصروا دين الله تعالى بسبب إيمانهم بوحدانية الله تعالى وتصديقهم لرسوله الكريم وكتابه العظيم وقد نصرهم الله تعالى في المقابل وثبت أقدامهم. أما التعس والهلاك فقد كانا من نصيب الجاحدين لوحدانية الله تعالى المكذبين للرسول الكريم والقرآن العظيم. وبما أن الاعتقاد غير سليم فمن الطبيعي أن يكون العمل غير سليم لأن الفاسد من الأمر لا يبني عليه إلا فاسد وقد عبر عن ذلك بإضلال الله تعالى أعمال الكافرين.

وسبق أن بينت أولى آيات السورة الكريمة أن من مظاهر ضلال الكافرين وزيادتهم إلى عماهم كونهم قد صدوا الآخرين عن سبيل الله وسبيل الهدى وأن هؤلاء الكافرين إنما انتهى بهم سوء الحال إلى هذا المستوى من فساد الاعتقاد والحال والأعمال بسبب كرههم للقرآن الكريم.

ولماذا يكره الكافرون ما أنزل الله تعالى مع أن القرآن الكريم معجزة الإسلام الكبرى الخالدة من جنس ما نبغ فيه هؤلاء الكافرون للقرآن الكريم؟ لأنهم ألفوا حياة الانفلات وإرضاء النزوات والشهوات وإشباع الرغبات. وبما أن أنفسهم لم تعد تقوى على حياة الانضباط واحتمال التكاليف والتبعات فقد انساق القوم مع هذه النفس الإمارة بالسوء في هيئة الكره لما أنزل الله تعالى. وكان الانسياق مع الأنفس في كره ما أنزل الله تعالى جارفاً فلم يعودوا قادرين على إنصاف القرآن الكريم من أنفسهم بأن يرسلوا هذه الأنفس على سجيتها علها تتجاوب مع القرآن الكريم وبألّا يعطلوا عقولهم وملكاتهم البيانية. وهم أرباب الفصاحة بل أن يعطوها الفرصة كي تتدبر بنزاهة هذا الكتاب العزيز. لقد كان موقف هؤلاء الكافرين من القرآن الكريم الرفض الكلي له فتورطوا في أكبر خسارة حيث قد فسدت عقيدتهم وما ارتبط بها من تصورات وأعمال.

وبما أن القوم قد تورطوا في أكبر الذنوب التي لا يغفرها جل وعلا بنص القرآن الكريم وهو الإشراك مع الله تعالى غيره فقد أحبط عز وجل الأعمال

الطيبة لهؤلاء المشركين من سقاية للحجاج وعمارة للمسجد الحرام وقرى للأضياف وحماية للجار وإغاثة للملهوف مما يعتبر عقلاً ونقلاً من مكارم الأخلاق. إن أعمالهم بسبب فساد العقيدة قد أضلها الله تعالى وإن أعمالهم الطيبة بسبب كرههم للقرآن الكريم قد أحبطها الله تعالى وأبطلها لأن الكره للقرآن الكريم معناه عدم امتثال أوامر الله تعالى والكره للرسول الكريم الذي أنزل الله تعالى عليه القرآن الكريم في أسمى طرق الوحي.

وإن هؤلاء الكافرين الكارهين للقرآن الكريم يستحقون من الله تعالى ما يوافق صنيعهم وذلك في مقابل حب الله تعالى للذين يحبونه فيتبعون الرسول الكريم. جاء في سورة آل عمران [1] قوله تعالى ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم. قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين** ﴾. وقال تعالى في حق هؤلاء الكافرين الذين استحقوا الهلاك وضلال الأعمال ﴿ **ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم** ﴾.

وإذا كان هؤلاء الكافرون قد عميت أبصارهم وبصائرهم عن تدبر آية الله تعالى الكبرى ومعجزة هذا الدين العظمى القرآن الكريم الذي شاءت العناية الإلهية أن يكون في حق العرب معجزة بيانية من جنس ما نبغوا فيه وهذا أمر غاية في العجب حقاً، فلا يستغرب من القوم ألا يستفيدوا بعد ذلك من آيات الله تعالى الأخرى. في السموات والأرض الدالة على قدرته جل وعلا المطلقة ومن هذه الآيات كون كفار مكة غير قادرين أثناء سفرهم إلى الشام واليمن على أن ينظروا بعين البصيرة إلى ما ينبغي أن يفهم من تلك الخرائب والآثار للأقوام الذين دمرهم الله تدميراً. إن هؤلاء الكافرين أعجز من أن يربطوا بين المسببات وأسبابها الحقيقية. إنهم لا يخطر ببالهم مطلقاً أن الآثار التي

---

(١) آية ٣١ و٣٢.

يمرون عليها والتي توحي بقوة أصحابها إنما دمرها الله تعالى على أصحابها بسبب مواقفهم الخاطئة من رسل الله تعالى إليهم والمماثلة لمواقف كفار مكة من رسول الله تعالى إليهم. وبما أن الكافرين غير قادرين على الوصول إلى هذا المستوى من الفهم، فهل كانوا قادرين على الوصول إليه بمساعدة الذكر الحكيم وتعاليم سيد المرسلين؟ كيف يستطيعون أن يصلوا إلى هذا المستوى وهم يسدون جاهدين كل المنافذ التي يمكن أن يتسلل منها نور الإيمان واليقين إلى قلوبهم. لقد جاء في أول سورة فصلت[1] قوله تعالى: ﴿ **حم تنزيل من الرحمن الرحيم. كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون. بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون. وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون** ﴾.

وبما أن القوم لا يستطيعون الفهم ولا يسعفون من يريد لهم الخير بإفهامهم فكيف يعرف هؤلاء أن مصيرهم يمكن أن يكون مماثلاً لمصير أولئك المكذبين السابقين؟ قال تعالى ﴿ **أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمَّر الله عليهم وللكافرين أمثالها** ﴾.. إن لهؤلاء الكافرين المكذبين من العواقب ما يماثل ما كان من نصيب الكافرين المكذبين الذين دمر الله تعالى عليهم تدميراً كعاد وثمود وقوم لوط[2] والمعروف أن آثار القوم معروفة آنذاك لكفار مكة يقول ابن جرير[3] «هذا توبيخ من الله لهم لأنهم قد كانوا يسافرون إلى الشام فيرون نقمة الله التي أحلها بأهل حجر ثمود. ويرون في سفرهم إلى اليمن ما أحل الله بسبأ فقال لنبيه عليه السلام وللمؤمنين به: أفلم يسر هؤلاء المشركون سفراً في البلاد فينظروا كيف كان عاقبة تكذيب الذين من قبلهم من الأمم المكذبة رسلها الرادة نصائحها، ألم

---

(١) الآيات ١ ـ ٥.

(٢) انظر تفسير القرطبي ٦٠٥٤ وتفسير الطبري ٢٦ ـ ٣٠.

(٣) تفسير الطبري ٢٦ ـ ٣٠.

نهلكها فندمر عليها منازلها ونخربها فيتعظوا بذلك ويحذروا أن يفعل الله ذلك بهم في تكذيبهم إياه فينيبوا إلى طاعة الله في تصديقك» ويقول الزمخشري بشأن قوله ﴿ **دمر الله عليهم** [1] ﴾ دمره. أهلكه ودمر عليه أهلك عليه ما يختص به والمعنى دمر الله عليهم ما اختص بهم من أنفسهم وأموالهم وأولادهم وكل ما كان لهم » ويرى ابن جرير الطبري [2] أن الضمير من أمثالها يعود إلى العاقبة «يقول: وللكافرين من قريش المكذبي رسول الله ﷺ من العذاب العاجل أمثال عاقبة تكذيب الأمم الذين كانوا من قبلهم رسلهم على تكذيبهم رسوله محمداً ﷺ».

ولماذا كان لكفار مكة أمثال ذلك التدمير الذي كان من نصيب كل جماعة كافرة مكذبة؟ الجواب نتبينه في الآية الكريمة: ﴿ **ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم** ﴾ والمولى هو الولي والناصر وإن المؤمنين إنما يعتمدون في كل أمورهم على ربهم الواحد المعبود القادر على كل شيء أما الكافرون فيعتمدون على الآلهة التي يشركون مع الله في العبادة. وهذه الآلهة عاجزة عن جلب النفع لأنفسها أو دفع الضر فهي إذن أشد عجزاً في حق الآخرين الذين يطلبون منها النصر. وحينما يعتمد المؤمنون في كل أمورهم على القادر على كل شيء الفعال لما يريد فالنتيجة بإذن الله تعالى في صالحهم. والنصر حليفهم دائماً وأبداً في حربهم مع الكافرين الذين لا مولى لهم في الحقيقة. وما قيمة أن يكون حليفك عاجزاً عن كل شيء؟ إنه لا قيمة لذلك. وهذا هو حال الكافرين في حربهم مع المؤمنين المتقين. وقد عبرت الآية الكريمة عن ذلك بكون الكافرين لا مولى لهم. قال تعالى: ﴿ **ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم** ﴾ والمولى هو الولي [3] ومن الجائز أن يكون

---

(١) الكشاف ٣ ـ ١٢٩.

(٢) تفسير الطبري ٢٦ ـ ٣٠.

(٣) صحيح البخاري ٦ ـ ١٦٧.

للباطل جولة من الجولات كما حدث في موقعة أحد التي يقال إن الآية الكريمة نزلت أثناءها ولكن العاقبة للمتقين دائماً وهذا هو الذي يحدث بعون الله تعالى دائماً ففيما يتصل بصراع الإيمان مع كفار مكة انتهى الصراع بانتصار المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ نصراً مؤزراً. وذلك بفتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة [1]. ذلك الفتح الذي يعتبر بحق فتح الفتوح، وفيما يتصل بنزول الآية الكريمة قال قتادة: نزلت يوم أحد والنبي ﷺ في الشعب إذ صاح المشركون: يوم بيوم لنا العزى ولا عزى لكم فقال النبي ﷺ قولوا: «**الله مولانا ولا مولى لكم**[2]» فالرسول ﷺ انتزع رده على أبي سفيان من الآية الكريمة [3].

لقد أهلك الله تعالى الكافرين ونجى المؤمنين. هذا هو نصيب كل في الدنيا ويبقى الحديث عن نصيب كل في الآخرة. وهذا ما ستتعرض له الآية الكريمة بعد ذلك قال تعالى: ﴿ **إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم** ﴾.

إن من نصيب المؤمنين المتقين يوم القيامة الجنة التي تجري من تحتها الأنهار وإن من نصيب الكافرين المكذبين النار وبئس القرار. وقد أشارت هذه الآية الكريمة إلى طبيعة الأعمال التي يقوم بها كل من الفريقين في الحياة الدنيا والتي استحق المؤمنون بسببها الجنة والكافرون النار. إن أعمال المؤمنين صالحة حيث قد ترجموا إلى عمل إيمانهم بالله تعالى الواحد الأحد وبالرسول الكريم الخاتم وبالقرآن المجيد المعجز. وقد استحقوا في مقابل إيمان القلب واللسان والتصديق بالجوارح والأعضاء الحياة الطيبة في الجنة إثر الحياة الطيبة في الحياة الدنيا. إن أعمالهم الصالحة في الدنيا وإن كانت شاقة إلا أنها لذيذة حقاً لأنهم

---

(١) انظر مثلاً من السيرة النبوية فتح مكة ٢ ـ ٣٨٩.

(٢) تفسير القرطبي ٦٠٥٤ وانظر الكشاف ٣ ـ ١٢٩ والبحر المحيط ٨ ـ ٧٦ وابن كثير ٤ ـ ١٧٥.

(٣) انظر البحر المحيط ٨ ـ ٧٦.

يقصدون بها كلها وجه ربهم الأعلى. وبهذا هي تدخل من باب العبادة الواسع إلى أبعد درجات الاتساع في الإسلام. وهكذا يلاحظ أن الإيمان بالقلب وباللسان لا يكفي إنما ينبغي أن يقترن الإيمان بالدليل العملي عليه. ويتم ذلك في هيئة العمل الصالح الذي يقصد به وجه الله تعالى.

وإذا كان المؤمنون المتقون يطبقون تعاليم القرآن الكريم وتعاليم سيد المرسلين فيفعلون الأوامر ويجتنبون النواهي وهذه هي الأعمال الصالحة فإن الذين كفروا يمتثلون في أعمالهم أوامر الشيطان الرجيم وأوامر النفس الأمّارة بالسوء. فبما أنهم لا يفردونه عز وجل بالعبادة ولا يؤمنون بالقرآن الكريم ولا بتعاليم سيد المرسلين لذا هم يعبدون الشيطان الرجيم والنفس الأمارة بالسوء. وما الذي ينتظر من هذين المعبودين الزائفين؟ الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف. وبما أنه ليس ثمة جـدّ الأمور ولا معاليها فهناك إذن سفسافها. وقد قيل: من لم يشغل نفسه بالحق شغلته بالباطل [1] وإن هؤلاء الكافرين يرخون لشهواتهم العنان لأنهم يعتبرون هذه الحياة الدنيا نهاية المطاف لذا هم يرفضون من القيود كل ما يحد من نيلهم لمتاع الدنيا كاملاً ويقبلون من القيود ما يحمي هذا المتاع فقط. وقد أشارت الآية الكريمة إلى الطعام الذي يسرف في تناوله الكافرون بالإضافة إلى المتاع بمعناه الواسع في غير الطريق المشروع، من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث.

وما زلت أذكر تعليقاً لاذعاً من قبل طبيب مسلم على إسراف بعض الأمم المادية في الأخذ بنصيبهم من المتاع ومن الطعام، وهو الذي يحاول جاهداً أثناء معاناته في علاجهم نصحهم بشأن الطعام مثلاً أن ينالوا منه ما تحتاجه أبدانهم وليس فوق الذي تحتاجه بنسبة عالية جداً بحيث يلوح الواحد منهم ـ على حد

---

(١) انظر هنا مثلاً طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن القيم ص ١٢٧ بيروت بدون تاريخ.

قوله ـ كما لو أن الفم لا يريد أن يكف عن الحركة والمعدة لا تريد أن تمتلىء بل تطلب دائماً المزيد.

«ثبت في الصحيح: المؤمن يأكل في معىً واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء»[1]. وقيل: المؤمن في الدنيا يتزود والمنافق يتزين، والكافر يتمتع[2] وقيل: العاقل يأكل ليعيش والجاهل يعيش ليأكل. إن الآية الكريمة تشبه أكل هؤلاء الكفار الذين ينتفعون بمتاع الدنيا أياماً قلائل[3] بأكل الأنعام التي لا تهتم لغير الأكل «في مسارحها ومعالفها غافلة عما هي بصدده من النحر والذبح»[4].

إن ثمة واجبات على هؤلاء الكفار ولكنهم لا يعترفون إلا بحقوقهم أما الشيء الذي لا يكادون يكفون عن القيام به لأنه تحول عبئاً ومرضاً فهو الطعام الذي يتناولونه باستمرار والذي يقوي على القذف إلى الأذهان بصورة تلك الأنعام التي توزع وقتها بين قضم الطعام وبلعه وبين اجتراره ومضغه وهضمه إن الأفواه تتحرك دائماً وإن نيل المتاع يتم دون تقدير ولا حساب وتلك طبيعة الكافرين الذين غفلوا عن التكاليف المنوطة بهم وعن الحياة الأخرى التي تنتظرهم والتي يحاسبون فيها عن أعمالهم وقد عرفنا أنهم صفر من كل خير بسبب إشراكهم مع الله تعالى غيره، وهو الذنب الذي لا يغفره جل وعلا. لذا فالنار مثوى لهم أي منزل ومقام ومصير يقول الطبري[5]: «والذين جحدوا توحيد الله وكذبوا رسوله ﷺ يتمتعون في هذه الدنيا بحطامها ورياشها وزينتها الفانية الدارسة ويأكلون فيها غير مفكرين في المعاد ولا معتبرين بما وضع الله

---

(١) تفسير ابن كثير ٤ ـ ١٧٥.
(٢) تفسير القرطبي ٦٠٥٥.
(٣) الكشاف ٣ ـ ١٢٩.
(٤) الكشاف ٣ ـ ١٢٩ وانظر البحر المحيط ٨ ـ ٧٧.
(٥) تفسير الطبري ٢٦ ـ ٣٠.

لخلقه من الحجج المؤدية لهم إلى علم توحيد الله ومعرفة صدق رسوله . فمثلهم في أكلهم ما يأكلون فيها من غير علم منهم بذلك وغير معرفة مثل الأنعام من البهائم المسخرة لا همة لها إلا في الاعتلاف دون غيره».

فإذا تحولنا إلى الآية الكريمة التالية. قال تعالى: ﴿ **وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم** ﴾ استطعنا أن نقول إنها بمثابة التسلية للمصطفى ﷺ وتثبيت الفؤاد فإذا كانت سورة محمد عليه الصلاة والسلام مدنية فإن هذه الآية الكريمة قد نزلت وهو في طريقه ﷺ إلى المدينة مهاجراً من مكة. والآية الكريمة تشير إلى الكثير من الأمم السابقة التي كانت أقوى من أهل مكة عدة وأكثر عدداً والتي كذبت رسلها فأخذها الله تعالى أخذ عزيز مقتدر. وإن القول «وكأيّن» يشير إلى كثرة عدد تلك الأمم التي أهلك الله تعالى من قبل وإن لفظ قرية له دوره الكبير في تثبيت فؤاده ﷺ وفي حمل كفار مكة على إعادة النظر في موقفهم. إن مكة المكرمة يطلق عليها آنذاك لفظ القرية ويراد بذلك المدينة في عرفنا الحالي. ويلاحظ أن لفظ المدينة يستعمل في القرآن الكريم بمعنى القرية، والقرية بمعنى المدينة. فهذه سورة يس مثلاً تستعمل كلاً من القرية والمدينة [1] بشأن المكان الذي كان يسكنه حبيب النجار والذي بعث الله تعالى إلى أهله ثلاثة من الرسل أتباع عيسى عليه السلام. وإذا كان لفظ القرية يطلق على مكة المكرمة آنذاك كما يبدو من الآية الكريمة ومن غيرها من الآيات الكريمات فإن في استعمال اللفظة ذاتها بشأن المكذبين السابقين حملاً لكفار مكة على إعادة النظر في موقفهم. ليس فقط لأنهم يشتركون مع السابقين في كونهم سكان قرى بل لأن السابقين المكذبين كانوا بنص القرآن الكريم أشد قوة من كفار مكة. ومع ذلك فقد دمرهم الله تعالى تدميراً. وقد أشارت سورة سبأ إلى أن كفار مكة لم تبلغ قوتهم معشار قوة بعض

---

(١) الآية ١٣ والآية ٢٠.

الأمم السابقة التي أهلكها الله تعالى. قال تعالى[1]: ﴿ **وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلي فكيف كان نكير** ﴾.

إن كفار مكة الفرحين الفخورين بإيناسهم في أنفسهم القدرة على إخراج المصطفى ﷺ من مكة المكرمة تسبقه الفئة المؤمنة المهاجرة كان ينبغي لهم أن يعرفوا أن رب العزة يمهل ولا يهمل وأنه جل وعلا لم تشأ إرادته أن تستأصل شأفتهم على غرار استئصال شأفة فرعون وقومه مثلاً حينما أراد فرعون أن يستفز موسى عليه السلام وقومه المؤمنين على نحو ما أشارت إلى ذلك سورة الإسراء[2]. قال تعالى: ﴿ **فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعاً** ﴾.

وتأمل التعبير العنيف الذي يستعمل دليلاً على انتقام الله تعالى من طغاة المكذبين ﴿ **أهلكناهم فلا ناصر لهم** ﴾ ومن الذي يستطيع أن يحول بين عذاب الله تعالى وبين أن يصل الذي سلطه الله تعالى عليه؟ لا أحد بطبيعة الحال وفي المقدمة تلك الآلهة التي يعبدون من دون الله تعالى العاجزة على نصر أنفسها فضلاً عن نصر سواها. لقد كان الأولى بكفار مكة أن يفهموا ذلك جيداً لا أن يسيئوا فهم نعم الله تعالى وإمهالهم. إن الإمهال إنما تم بإرادة الله تعالى تحقيقاً لرغبة الرسول ﷺ الذي أرسله الله تعالى رحمة للعالمين. فلم يشأ ﷺ وقد استأذن في أن تستأصل شأفة المكذبين أن يتم شيء من ذلك، أملاً في أن يؤمن القوم أو أن يؤمن ذراريهم، وقد تحقق أمله ﷺ فما أكثر الذين تحولوا جنداً للإسلام بعد أن كانوا حرباً عليه. وما يقال عن الذراري أشد وضوحاً وأقرب تناولاً.

وإذا كان ﷺ لم يشأ أن تستأصل شأفة قومه المكذبين فإن رب العزة «رفع

---

(١) سورة سبأ ٤٥.

(٢) سورة الإسراء ١٠٣.

عن كثير منهم العقوبة في الدنيا، لبركة وجود الرسول نبي الرحمة فإن العذاب يوفر على الكافرين به في معادهم، يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون»[1].

لقد قام كفار مكة بعمل خطير وارتكبوا جرماً عظيماً في حقه ﷺ. ويكفي أن نتدبر هذا التعبير في الآية الكريمة خطاباً له ﷺ ﴿من قريتك﴾ جاء في سورة الأنفال[2] قوله تعالى: ﴿ **وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين** ﴾ إن المصطفى ﷺ إنَّما يحب مكة المكرمة لأن بها بيت الله تعالى فهي أحب بلاد الله تعالى إلى الله وأحب بلاد الله تعالى إليه ﷺ. على نحو ما جاء في الحديث الصحيح. عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ لما خرج من مكة إلى الغار وأتاه فالتفت إلى مكة وقال: أنت أحب بلاد الله إلى الله. وأنت أحب بلاد الله إلي. ولولا أن المشركين أخرجوني لم أخرج منك. فأعدى الأعداء من عدا على الله تعالى في حرمه أو قتل غير قاتله. أو قتل بذحول الجاهلية. فأنزل الله تعالى على نبيه ﷺ ﴿ **وكأين من قرية.. الآية**[3] ﴾ وجاء في تفسير القرطبي[4] «وهو حديث صحيح».

ويمتثل المصطفى ﷺ أوامر ربه جل وعلا الذي أذن له في الهجرة التي تحقق عن طريقها إحساس كفار مكة بالقدرة على إرغامه ﷺ على الخروج ونعتقد ـ والله تعالى أعلم ـ أن الإذن للمصطفى ﷺ في الخروج وليس إرغام كفار مكة له ﷺ على ذلك من مظاهر رأفة الله تعالى بعبده المصطفى ﷺ وبكفار مكة كذلك. إن خروجه ﷺ بإذن ربه. وقد أحس كفار مكة بخروجه ﷺ

---

(١) تفسير ابن كثير ٤ ـ ١٧٥ والجزئية من سورة هود آية ٢٠.

(٢) آية ٣٠.

(٣) تفسير ابن كثير ٤ ـ ١٧٥.

(٤) تفسير القرطبي ٦٠٥٥ وانظر تفسير الطبري ٢٦ ـ ٣١.

بالزهو والغرور لأن الخروج موافق لإيناسهم في أنفسهم القدرة على إخراجه عليه الصلاة والسلام. بل على أكثر من ذلك أن يثبتوه أو يقتلوه على نحو ما أشارت إلى ذلك آية سورة الأنفال [1] يقول الزمخشري [2]: «ومعنى أخرجوك كانوا سبب خروجك». وجاء في الحديث الذي رواه البخاري إلى هذا الإذن منه جل وعلا لرسوله ﷺ بأن يهاجر عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت: لم أعقل أبوي إلا وهما يدينان الدين ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكرة وعشية فبينما نحن جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة قال قائل: هذا رسول الله ﷺ في ساعة لم يكن يأتينا فيها. قال أبو بكر ما جاء بـه في هذه الساعة إلا أمر قال: قد أذن لي بالخروج [3].

ويلاحظ إن الإخراج قد نسب مجازاً إلى القرية والمراد بذلك أهلها وقد توزع الحديث بين مراعاة لفظ القرية وبين مراعاة معناه أي أهلها لقد روعي لفظ القرية في قوله تعالى من الآية الكريمة: ﴿ **وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك** ﴾ وروعي معنى اللفظ بمعنى أهل القرية أو سكانها في قوله تعالى من الآية الكريمة: ﴿ **أهلكناهم فلا ناصر لهم** ﴾ ومن مظاهر إهلاك الله تعالى لهؤلاء الكافرين المكذبين الأقوياء ما أشارت إليه هذه الآيات الكريمات من سورة العنكبوت [4]:

قال تعالى: ﴿ **وإلى مدين أخاهم شعيباً فقال يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعثوا في الأرض مفسدين. فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين. وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين. وقارون وفرعون**

---

(١) آية ٣٠.
(٢) الكشاف ٣ ـ ١٢٩.
(٣) صحيح البخاري ٨ ـ ٢٦.
(٤) الآيات ٣٦ ـ ٤١.

وهامان. ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين. فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون. مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون ﴾.

ونتحول إلى الآية الكريمة التالية. قال تعالى: ﴿ أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم ﴾.. وأول ما يلاحظ هو أننا الآن أمام ذات الظاهرة الأسلوبية التي تبيناها في الآية الكريمة السابقة حيث يحمل التعبير مرة على اللفظ ومرة على المعنى. أما مراعاة اللفظ ففي هذا الجزء من الآية الكريمة الذي يراعى فيه «من» فيكون الحديث عن المفرد قال تعالى: ﴿ أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله ﴾.. والمعروف إن من اسم بمعنى الذي ومغن عن الكلام الكثير المتناهي في البعاد والطول [1]. وأما مراعاة المعنى ففي هذا الجزء الباقي من الآية الكريمة الذي يراعى فيه الجمع. قال تعالى: ﴿ واتبعوا أهواءهم ﴾ وإن القول أفمن كان على بينة من ربه. استفهام توقيف وتقرير على كل شيء متفق عليه وهي معادلة بين هذين الفريقين [2].

ويمكن أن يكون القول ﴿أفمن كان على بينة من ربه﴾ يعني المصطفى ﷺ. والقول ﴿ كمن زين له سوء عمله ﴾ يعني كل كافر بعينه من أهل مكة أساساً كأبي جهل وأمثاله ويمكن أن يكون الحديث هنا عن جنس المؤمن بقيادة المصطفى ﷺ، وعن جنس الكافر بقيادة النفس الأمارة بالسوء والأهواء والشيطان الرجيم عليه لعنة الله تعالى. وقد بينت الجزئية الأخيرة في

---

(١) القاموس «من».

(٢) البحر المحيط ٨ ـ ٧٨.

الآية الكريمة دور الأهواء في سيطرتها على القوم. قال تعالى: ﴿ **واتبعوا أهواءهم** ﴾.

فإذا كانت النظرة ﴿ **أفمن كان على بينة من ربه** ﴾ تعني المصطفى ﷺ. فالمراد بالبينة الوحي، كلام الله تعالى الذي أنزله على خاتم الأنبياء والمرسلين. والمعروف أن خُلُقَ الرسول الكريم القرآن وأنه ﷺ أوتي القرآن ومثله معه يعني السنة. والمطلوب منا أن نتدبر جيداً هذا القول في حقه ﷺ. ﴿ **أفمن كان على بينة من ربه** ﴾ فالمصطفى ﷺ لا ينطق عن الهوى إنما يتكلم بوحي من الله تعالى. وإذا كان هذا هو حظ كلامه ﷺ. فأولى بذلك فعله عليه الصلاة والسلام. وقد عرفنا أن خلقه عليه الصلاة والسلام القرآن كما صرحت بذلك زوجه السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها.

وإذا كانت النظرة في قوله ﴿ **أفمن كان على بينة من ربه** ﴾ تعني جنس المؤمن فمعنى هذا أن البينة شاملة لهديه ﷺ من قرآن كريم كلام رب العالمين، وسنة مطهرة هي في جوهرها من مشكاة نور القرآن الكريم. إن لفظة البينة تستعمل في السورة التي تتسمى بها في حق أهل الكتاب بخاصة بشأن رسل الله تعالى والصحف التي يتلون وفيها الكتب القيمة. قال تعالى [1]: ﴿ **لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة. رسول الله يتلو صحفاً مطهرة. فيها كتب قيمة. وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة. وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة** ﴾. ونستطيع أن نفهم علاقة البينة بالبيان والحجة والبرهان خاصة إذا عرفنا أن حكمة الله تعالى قد اقتضت ألا يبعث رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم. جاء في سورة إبراهيم [2] قوله تعالى:

---

(١) سورة البينة ١ ـ ٥.

(٢) آية ٤.

﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم ﴾.

وتأمل هذا التعبير ﴿ من ربه ﴾ والمعروف أن لفظة الرب منبهة إلى إنعام الله تعالى على عباده بالتربية والتنشئة والإحسان. وهذه اللفظة إنما تستعمل حينما يكون الجو عابقاً بشذا الرضا والامتنان. فهؤلاء الذين يسيرون بنور ربهم هم محل الرضا فمن حقهم أن يكون الرضا من نصيبهم على نحو قوله تعالى من سورة الفجر [1] خطاباً للنفس المؤمنة المطمئنة: ﴿ **يا أيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية. فادخلي في عبادي وادخلي جنتي** ﴾.

وفيما يتصل بالجزء من الآية الكريمة التي يتحدث عن الذي زين له سوء عمله، وعن الذين اتبعوا أهواءهم فالذي يبدو أنه ليس ثمة كبير فرق بين القول: إن الحديث يعني ذلك الكافر بعينه الذي زين له سوء عمله وأمثاله أو عن جنس الكافر. لأن صفات الكفر مشتركة ولأن الكفر ملة واحدة. فما الذي يلاحظ على عمل هذا الكافر أو ذاك؟ الذي يلاحظ هو أن عمله سوء كله. لماذا؟ لأنه اتبع الهوى والنفس الأمارة بالسوء والشيطان الرجيم. وفي إمكاننا أن نتدبر جيداً جملة «اتبعوا» في الآية الكريمة. إن الاتباع هنا يعني التقليد الأعمى ومعنى العمى هنا أن يعطل المرء نعم الله تعالى عليه والتي تسعفه على أن يميز بين الخبيث والطيب كي يجتنب الخبيث ويتبع الطيب. وما الذي يتوقع أن يكون طبيعة لذلك العمل الذي هو وليد التقليد الأعمى والذي يطاع فيه الهوى والنفس الأمارة بالسوء والشيطان الرجيم؟ الذي يتوقع بصفة أكيدة أن يكون سوءاً كله. والأدهى والأمر هو أن هذا الكافر أو ذاك لا يتبين عمله على حقيقته بل يرى السيء حسناً وفي المقابل هو يرى الحسن سيئاً. فهؤلاء الكفار بمكة الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله تعالى فأضل الله تعالى أعمالهم وزادهم عمى

---

(١) الآيات ٢٧ ـ ٣٠

على عماهم. يرون أعمالهم غاية في الحسن والصلاح بينما هي غاية في القبح والفساد. إنهم على سبيل المثال ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله. فما هي حقيقة شعورهم تجاه هذا العمل السيء؟ حقيقة شعورهم السعادة ويمكن أن نتخذ من أبي سفيان رمزاً لهم. فبعد أن هزم المسلمون في أحد إثر انتصارهم الساحق أول الأمر خاطب أبو سفيان المسلمين قائلاً: أما إنكم ستجدون مُثْلةً لم آمر بها ولم تسؤني. ثم ذهب يرتجز: اعل هبل اعل هبل.! وقد أمر المصطفى ﷺ أصحابه أن يجيبوه قائلين: الله أعلى وأجل ثم قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال رسول الله ﷺ: قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم [1].

إن أبا سفيان وأمثاله لو فكروا مثقال ذرة بحرية منتفعين من نعم الله تعالى عليهم، لانتهوا إلى هذه الآلهة التي يشركونها مع الله تعالى أوهن من بيت العنكبوت الذي ضرب الله تعالى به المثل في الضعف والهوان. وقد جاء في سورة الأنفال عن هؤلاء الكافرين الذين ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله قوله تعالى [2]:

﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون. والذين كفروا إلى جهنم يحشرون، ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون﴾.

وإن الذي يزين للكافر عمله السيء هواه المطاع، ونفسه الأمارة بالسوء المتبعة، والشيطان الرجيم الذي لا يأمر إلا بالسوء والفحشاء.

وإن جواب الاستفهام التقريري في الآية الكريمة واضح تمام الوضوح. وهل ينكر عاقل واحد أن الذي هو على بينة من ربه من قرآن كريم وسنة

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٤ ـ ١٧٥.

(٢) سورة الأنفال ٣٦ ـ ٣٧.

مطهرة على الصراط المستقيم. وأن الذي اتخذ إلهه هواه ونفسه الأمارة بالسوء معبودته والشيطان الرجيم قائده في طريق الهلاك والردى. لا ينكر عاقل واحد شيئاً من هذه الحقيقة وإن من مظاهر رحمة الله تعالى بعباده أن توضع المسألتان في هذا الحيز الواحد الواضح الأبعاد. إن هذه الطريقة من التعبير قادرة على جعل الحق أنصع بياضاً والباطل أحلك سواداً وفي ذلك إسعاف للعباد على سيرهم جميعاً في طريق الهدى والفلاح. المؤمنون أكثر خلق الله تعالى حرصاً على استمرار السير في ذلك الطريق وأشد خلق الله تعالى عضاً عليه بالنواجذ. والكافرون وقد وضحت لهم حنادس ليل طريقهم المظلم ينبغي أن يكونوا أسرع خلق الله تعالى تحولاً إلى طريق النور والهدى والفلاح. ويكون ذلك بمخالفة الهوى والنفس الأمارة بالسوء وعصيان الشيطان الرجيم واتباع تعاليم القرآن الكريم وسنة سيد المرسلين ﷺ. إن الاتباع المطلق لنور القرآن الكريم ولنور سيد المرسلين هو اتباع المبصرين الذين صحت عقولهم ونضجت أفكارهم وزكت نفوسهم وصفت أفئدتهم وطهرت قلوبهم واستقامت فطرهم. ما أحرى عباد الله تعالى جميعاً أن يكونوا كذلك.

ونتحول إلى آخر آيات القسم. قال تعالى: **﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم كمن هو خالد في النار وسقوا ماءً حميماً فقطع أمعاءهم﴾**.

الآية الكريمة تتحدث عن صفة الجنة التي وعد الله تعالى المؤمنين المتقين الذين آمنوا بها جزءاً من إيمانهم بالغيب وعملوا من أجلها الصالحات إن فيها أنهار ماء ولبن وخمر وعسل. يختلف كل عن نظيره في الدنيا اختلافاً جوهرياً. وكي يكون قريباً من تصورنا طبيعة النوع الواحد منها المنفيّ عن كل نوع أقرب المتعلقات به التي تحول بينه وبين أن يكون أجود الأنواع في الدنيا. إن ماء أنهار

الجنة غير متغير الرائحة. وإن لبنها لم يتغير طعمه فهو على حالته الأصلية التي وجد عليها. وإن خمرها يختلف عن خمر الدنيا طبيعة وشكلاً ولوناً وطعماً إن أبسط عيوب خمر الدنيا منفية عنها. وإن عسلها مصفى خالٍ من أهم متعلقاته كالشمع مثلاً، ويرتبط بالمشروبات المطعومات التي رمز لها بالثمرات أي الفواكه وهي من التفكه والتلذذ. وذلك دليل على وجود كل الأنواع الأخرى من الطعام الذي يقترب من الضروري. وقد اقترن بالإكرام المادي إكرام معنوي. هو السبب الأهم للإكرام المادي، وهو المغفرة من الله تعالى التي تفضل بها على هؤلاء العباد. وكما قارنت الآية الكريمة السابقة بين من كان على بينة من ربه وبين من زين له سوء عمله واتبع هواه تمت المقارنة على غرار ترتيب الحديث السابق عن المتقين أولاً والمجرمين ثانياً بين حال كل من الفريقين أصحاب الجنة وأصحاب النار. وكأن التقدير: أفمن هو خالد في الجنة التي وعد المتقون كمن هو خالد في النار؟ والجواب معروف على غرار الجواب في الآية الكريمة السابقة. لا يستـوون. وفي مقابل أنواع المشروبات للمتقين من أنهار الجنة هناك الماء الشديد الغليان الذي هو من نصيب الكافرين يقطع أمعاءهم فتخرج من أدبارهم بعد أن شوى وجوههم وأطار فروات رؤوسهم من شدة حره لاقترابه من أفواههم متجرعين له. وهذه النظرة الأولى السريعة بحاجة إلى نظرة أخرى ثانية.

إن لفظة «مثل» هنا تعني صفة وكأن المعنى صفة الجنة التي وعد المتقون وليس بخاف أن هذه الصفة بقصد تقريب الجنة إلى أذهان عباد الله تعالى وإلا فإن في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما. ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء [1]. ويأخذ بسبب من هذا التقريب استعمال القرآن الكريم لفظة جنة دليلاً على

---

(١) الرسالة التدمرية لابن تيمية ص ١٨.

الحديقة الغناء في غير موضع من الذكر الحكيم. جاء في سورة الكهف [1] قوله تعالى:

﴿ واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً. كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً. وفجرنا خلالهما نهراً ﴾. وجاء في سورة البقرة [2] قوله تعالى: ﴿ أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت. كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ﴾. وجاء في سورة الأنعام [3] قوله تعالى: ﴿ وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً أكله والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه. كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾.

إن لفظة جنة إنما أطلقت بسبب قدرة خضرتها على أن تجن الأرض أي تسترها. ففي استعمال لفظة الجنة دليل على أننا بصدد الأشجار والزروع المعروشات وغير المعروشات على نحو ما أشارت آية سورة الأنعام[4].

والآية الكريمة تستعمل جملة «وعد» مما هو دليل على إيمان هؤلاء المؤمنين بالجنة وبالنار وبالحساب والجزاء والثواب والعقاب بأن كل ذلك حق. إن من أهم صفات المتقين أنهم يؤمنون بالغيب على نحو ما صرحت بذلك سورة البقرة في أولها قال تعالى[5]:

﴿ الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين. الذين يؤمنون بالغيب

---

(١) الآية ٣٢ و٣٣.
(٢) آية ٢٦٦.
(٣) آية ١٤١.
(٤) انظر هنا معجم مقاييس اللغة لابن فارس (جنن).
(٥) الآيات ١ ـ ٥.

ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون. والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون. أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ وقد ترجم أولئك المؤمنون ذلك الإيمان إلى عمل صالح تفضل الله تعالى بقبوله فاستحقوا الجنة التي عرضها السموات والأرض.

وقد وصفت الآية الكريمة المؤمنين بأنهم المتقون قال تعالى: ﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون ﴾ وهذه الصفة تأتي في السورة الكريمة للمرة الأولى وكأننا بصدد صفة إضافية تنوه بها السورة الكريمة بشأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وجاهدوا في الله تعالى حق الجهاد. لقد وصف المؤمنون في الآيات السابقة بصفات عدة وهم يوصفون الآن بالتقوى التي من أهم سماتها أنها ساكنة قلب المؤمن الذي يخشى الله تعالى يرقبه دائماً وأبداً في كل أعماله التي يقوم بها وكل أقواله. والمتقون «هم الذين اتقوا في الدنيا عقابه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه»[1].

وليس بخافٍ علينا العلاقة بين الوقاية التي تستعمل أساساً في المحسوسات إشارة إلى الأشياء التي تتخذ بقصد اتقاء أذى الشيء الذي يحرص الإنسان على تجنبه وبين التقوى التي تستعمل في المعنويات دليلاً على ما يقوم به الإنسان بدافع الخشية من الله تعالى من أعمال صالحة وما يترك من أعمال غير صالحة. إن الوقاية حجاز حسي يحول بين المرء وبين الأذى الذي يتوقى. وفي المقابل ينال حسب توقعه أو حتى أمله خيراً كثيراً. وإن التقوى حجاز معنوي يحول بإذنه تعالى بين المرء وبين النار التي وقودها الناس والحجارة والتي أعدت للكافرين. وفي المقابل ينال بعفو الله تعالى وتفضله بقبول أعماله الصالحة خيراً كثيراً في الجنة التي أعدها الله تعالى للمتقين.

أشارت الآية الكريمة إلى أربعة أنواع من أنهار الجنة يتدفق كل بنوع من

---

(١) تفسير الطبري ٢٦ ـ ٣١.

أهم المشروبات في هذه الحياة. الماء واللبن والخمر والعسل فما هي الملابسات التي قد يوحي بها هذا الترتيب؟ إنها:

أولاً: إن هذا الترتيب يوحي بكثرة هذه المشروبات في ذاتها وبكونها في حق مشروبات الدنيا متجهة من الكثير إلى الأقل منه كثرة. فالمعروف بداهة أن الماء هو الأكثر يليه اللبن فالخمر فالعسل.

ثانياً: هذا الترتيب المعين للأنواع وفق كثرتها يشي باحتياج الإنسانية الموافق لتدرج هذه الأنواع من حيث الكمية. إن حاجة الإنسانية إلى كمية من الماء كبيرة تليها الحاجة إلى كمية أقل من اللبن وهكذا. وقد اقتضت حكمة الله تعالى البر الرحيم الذي خلق كل شيء بقدر أن تكون الكمية الموجودة من كل شيء موافقة لاحتياجات الإنسانية. ومن أقرب الأمثلة التي تحضرنا بالنسبة للمشروبات الماء واللبن والعسل وبالنسبة للمطعومات الحبوب والفواكه والملح والسكر، وبالنسبة للمتاع والحلى الحديد والذهب.

فإذا تحولنا إلى الجزئية التالية ﴿**فيها أنهار من ماء غير آسن**﴾ تبين أنها تشير إلى واحد من الأنواع الأربعة للأنهار التي أشارت إليها الآية الكريمة. إنها أنهار الماء ونحن نود أن نعرف منابع هذه الأنهار التي تجري في الجنة. في الصحيح: «إذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة وفوقه عرش الرحمن»[1]. وكأن هذه الأنهار التي تتفجر من علالي الجنة تمر ابتداء بالمقربين فالأقرب فالأقرب منهم فالأقرب وهكذا. ولا يخفى أن منزلة المجاهدين في سبيل الله تعالى رفيعة حقاً. وهذا معناه أن أنهار

---

(١) تفسير ابن كثير ٤ - ١٧٦.

الجنة تمر بهم ابتداء ضمن المقربين أمثالهم. وقد أشارت الجزئية الكريمة في صيغة التنكير «أنهار» إلى الكثير من الأنهار والكثير وكيف لا يكون الأمر كذلك وإن عرض الجنة كعرض السموات والأرض.

وقد ابتدأ الحديث عن أنواع أنهار الجنة بالمائي منها لغير ما سبب. إن الهدف من إعطاء صفة الجنة تحبيبها إلى عباد الله تعالى كي يعملوا في الدنيا من أجل الدخول فيها يوم القيامة ولما كان أهم متعلقات جنان الدنيا التي يرتبط بذكرها التنعم والتلذذ أن يكون حظها من الماء المتدفق فيها باستمرار موفوراً ولما كان القرآن الكريم إنما نزل بلسان عربي مبين كي يفهمه العرب أولاً ويقوموا بعد ذلك بحمله إلى الخافقين ـ والمعروف أنه قد استقر في روع العرب الذين يسكنون بلاداً واسعة تنعدم فيها الأنهار ويقل في كثير من أرجائها الماء أن الماء ضروري للجنان ـ لذا تقدم الحديث في الآية الكريمة عن أنهار الماء على أنواع الأنهار الأخرى. ويضاف إلى ذلك أن حاجة الإنسان إلى الماء تسبق حاجته إلى كل شيء آخر بعد الهواء فقد جعل الله تعالى من الماء كل شيء حي. وإن الإنسان ذاته أحوج خلق الله تعالى إلى الماء شرباً وغسلاً ونظافة واستعمالاً لأغراض شتى ذاتية وخارجية وعن طريقه يتم الحصول على أهم ما يحتاج إليه بعد الهواء والماء ألا وهو الطعام.

ومن رحمة الله تعالى بالإنسان أن جعل كل ما يحتاج إليه مكافئاً لحاجته إليه وقدرته على الحصول عليه وتفسير ذلك أن الهواء أهم ما يحتاج إليه الإنسان لذلك لم تكن لمخلوق سلطة على الهواء الذي ينال منه كل مخلوق ما يحتاج إليه دون بذل شيء من مجهود، حينما يكون معافى.

فإذا تركنا الهواء إلى الماء وجدناه يلي الهواء أهمية. وتشاء رحمة البر الرحيم أن يكون الحصول على الكمية المطلوبة من الماء، الذي يعتبر إن غاب أعز مفقود، ليس محتاجاً إلا إلى القليل من المجهود الذي يكاد يقتصر على

استخراجه إن كان يحتاج إلى استخراج وحمله إن كان يحتاج إلى حمل. إن المبلغ الذي يدفع ثمناً للماء وغير الماء يدفع في حقيقة الأمر مقابل المجهود الذي يبذل في سبيل الحصول عليه أما الماء وكل شيء في الوجود فهو بالمجان ابتداء من أهون موجود وأعز مفقود أعني الماء إلى أثمن المعادن وأغلاها. إن المبلغ الذي يدفع إنما هو في مقابل المجهود الذي يبذل لا غير ولما كانت حاجة البشر إلى الماء الذي يعتبر عماد الحياة ماسة ولما كانت الحاجة إلى كميات كبيرة من الماء أمراً طبيعياً ، ولما كان قد استقر في الأنفس أن أكبر المظاهر للمياه العذبة إنما تتجلى في الأنهار المتدفقة. لذا نتبين أن الآية الكريمة تبدأ الحديث عن الأنهار بالإشارة إلى أنهار الماء المتدفقة في الجنة.

وقد جرت العادة بأن مياه الأنهار هذه كي تكون صالحة لاستعمال الإنسان لها شخصياً في هيئة الشرب أساساً إنما تحتاج إلى العديد من العمليات الدقيقة الصعبة كي تكون نقية بمعنى أنها سليمة اللون والطعم والرائحة. وهذه هي أهم سمات الماء الصحي، وإليك ما يقول أحد المتخصصين في مجال تنقية مياه الأنهار[1]: «وهذه بطبيعة الحال عملية معقدة للغاية. فمياه النهر تخضع أولاً لعملية تصفية سريعة ثم تتم معالجتها بثاني أوكسيد الكلور وبعد ذلك بكلوريد الحديد ثم تخضع لعملية تصفية بطيئة. تعقبها عملية ضبط نسبة الحموضة مع الصودا وأخيراً يتم معالجتها بالأوزون، وهو شكل من أشكال الأوكسجين ويتبين مما تقدم أن الحصول على ماء نقي ليس بالأمر السهل على الإطلاق».

أما وقد وقفنا على هذه الحقيقة، مع الاعتقاد بأن قدرة العلم على إتقان عملية تنقية المياه آخذة في النمو المطرد، فما الذي يلاحظ على هذه الجزئية الكريمة التي تشير إلى أهم المظاهر التي استقر في الأنفس تجسد المياه الصالحة

---

(١) مجلة العربي ص ٤٣ العدد ٢٣٨.

فيها وهي الأنهار ﴿ فيها أنهار من ماء غير آسن ﴾؟ الذي يلاحظ أن الجزئية الكريمة تنفي عن هذه الأنهار التي لا يعلم عددها وما تحمل من كميات المياه العذبة الطهور إلا الله تعالى، تنفي عن هذه المياه أبسط المظاهر التي تتعلق بها في العادة وهي كون رائحتها متغيرة أو لونها أو طعمها. قال تعالى: ﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن ﴾.

والآسن من الماء مثل الآجن، أسن (بالفتح) الماء أسناً (بالسكون) وأسن (بالكسر) أسناً (بالفتح) تغير غير أنه شروب [1]. . التهذيب: أسن الماء يأسن أسناً وأسوناً، وهو الذي لا يشربه أحد من نتنه (بسكون التاء) قال الله تعالى: ﴿من ماء غير آسن﴾. قال الفراء: غير متغير وآجن. . . قيل للرجل إذا دخل بئراً فاشتدت عليه ريحها حتى يصيبه دوار فيسقط: قد أسن. وقال زهير:

يغادر القرن مصفراً أنامله يميد في الرمح ميد الماتح الأسن [2]

والآجن الماء المتغير الطعم واللون. أجن (بالفتح) الماء يأجن (بالكسر) ويأجن (بالضم) أجنا (بالسكون) وأجوناً (بضم الهمزة). . . وفي حديث علي كرم الله وجهه: ارتوى من آجن هو الماء المتغير الطعم واللون وفي حديث الحسن عليه السلام أنه كان لا يرى بأساً بالوضوء من الماء الآجن [3].

وبما أنه من المعروف جيداً للعرب الذين نزل القرآن الكريم بلسانهم ولغيرهم على السواء أن الحاجة بين المشروبات إلى اللبن تلي الحاجة إلى الماء وأن الكمية المطلوبة منه تلي الكمية المطلوبة من الماء رغم الفرق الشاسع بين الكميتين في الحجم. فمن الملاحظ أن الآية الكريمة بذكرها لأنهار اللبن في الجنة عقب ذكرها لأنهار الماء قد عمقت هذا الإحساس وقوته.

---

(١) اللسان «أسن».

(٢) اللسان «أسن».

(٣) اللسان «أجن».

وليس بخافٍ الطريقة التي يتم عن طريقها في الدنيا الحصول على اللبن وقد قال رب العزة سبحانه وتعالى في سورة [1] النحل ﴿ **وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين** ﴾ وليس بخافٍ أن الحصول على الكمية من اللبن الموافقة لاحتياج الإنسانية بحاجة إلى مجهود كبير وهي كمية تستهلكها الإنسانية في هيئة تناول اللبن شراباً أو معالجته طعاماً. أما في الجنة فقد شاءت العناية الإلهية أن تتدفق فيها أنهار وأنهار من هذا الشراب الذي لا يكاد يستغني عنه في الدنيا شخص واحد خاصة وأنه يجمع بين كونه شراباً وطعاماً.

وإن الحصول على لبن سائغ للشاربين بحاجة إلى مجهود وإلى مجهود مستمر خاصة في تلك الأثناء التي نزل فيها القرآن الكريم والتي استقر في النفوس أثناءها أن اللبن، خاصة بسبب البيئة التي تميل للحرارة، سريع تغير الطعم فالفساد. ولا يخفى أننا في عصرنا الحالي كي نحتفظ باللبن سائغاً للشاربين نحن بحاجة إلى الكثير من الوسائل القادرة على إطالة عمر اللبن السائغ ولكن إلى حين. . أما في الجنة فإنها أنهار اللبن الطبيعي تتدفق باستمرار وفي استطاعة أصحاب الجنة دائماً وأبداً أن يحصلوا من ذلك اللبن على كل ما يحتاجون. سبحان الله الذي لا إله إلا هو. أنهار من اللبن السريع التأذي بأقل الملابسات من مكان وزمان وهواء وما إلى ذلك تتدفق بغزارة في جنبات الجنة وتظل دائماً وأبداً خالصة من كل الشوائب سائغة للشاربين، لم يطرأ عليها أبسط مظاهر التغير على اللبن المعروف بسرعة تغير طعمه!!. . نعم إن ذلك بعض صفات الأنهار من اللبن في الجنة. لأنها أنهار من لبن لم يخرج من ضروع الأنعام إنما فجرها رب العزة من أعلى الجنة تفجيراً. يقول ابن كثير بشأن أنهار اللبن الذي لم يتغير طعمه [2]: «أي بل في غاية البياض والحلاوة والدسومة وفي

---

(١) آية ٦٦.

(٢) تفسير ابن كثير ٤ ـ ١٧٦.

حديث مرفوع لم يخرج من ضروع الماشية». وبما أن أبسط أنواع التغير على اللبن في الدنيا لم يطرأ على أنهار لبن الجنة فمن باب أولى ما وراء ذلك ﴿ **وكان الله على كل شيء مقتدراً** ﴾ (١) ويقول الطبري (٢) «وفيها أنهار من لبن لم يتغير طعمه لأنه لم يحلب من حيوان فيتغير طعمه بالخروج من الضروع ولكنه خلقه الله ابتداء في الأنهار فهو بهيئته لم يتغير عما خلقه عليه».

أما النوع الثالث من الأنهار فهو أنهار الخمر التي أشار إليها قوله تعالى: ﴿ **وأنهار من خمر لذة للشاربين** ﴾ لقد لاحظنا أن النوع الأول من الأنهار أنهار الماء يرتبط به الشرب بأكثر من غيره. وأن النوع الثاني أنهار اللبن يجمع بين كونه شراباً وطعاماً. ومعروف أنه يأتي بعد الطعام والشراب التلذذ وقد كان من نصيبه أنهار الخمر.

معروف أن الإسلام حرم الخمر على المسلمين في الدنيا وبين لهم أن خمر الآخرة هي الأحسن والأفضل والأدوم. فما هو موقف العرب من الخمر قبل الإسلام. وما هو موقفهم من تحريم الإسلام لها وما رد الفعل بالنسبة لهم حينما وعدوا بخمر الجنة البيضاء اللذة للشاربين؟

فيما يتصل بموقف العرب من الخمر قبل الإسلام فالمعروف أن حبهم لها ولمجالسها بلغ من قلوبهم إلى حد الشغاف. وبسبب تغلغل هذا الحب القاتل في أحشاء المجتمع العربي شاءت العناية الإلهية أن تتدرج بهم في تحريم الخمرة عليهم. ولو لم يكن الإيمان قد تغلغل في أحشائهم بعد ذلك لما أذعنوا إلى تحريم الإسلام للخمر ولكن شاءت العناية الإلهية أن تمكن لهذا الدين في قلوب العرب كما شاءت أن تتدرج بهم في تحريمها كي تكون النفوس مستعدة لتحريمها تحريماً كلياً. فأشارت أول الأمر إلى طبيعة ما يمكن الحصول عليه من ثمرات

---

(١) سورة الكهف ٤٥.

(٢) تفسير الطبري ٢٦ - ٣١.

النخيل والأعناب من السكر الذي حرم الله تعالى مستقبلاً والرزق الحسن وهو ما أحل الله تعالى. جاء في سورة النحل المكية [1] قوله تعالى: ﴿ **ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً، إن في ذلك لآية لقوم يعقلون** ﴾. وكأن الآية الكريمة قد هيأت الأنفس لشيء يقال عن الخمرة يتعلق بالرغبة عنها أو تحريمها.

وقد أشار القرآن الكريم بعد ذلك إلى أن في الخمر إثماً ومنافع ولكن إثمها أكبر من نفعها وفي ذلك إغراء لهم بأن يقللوا من شربها. جاء في سورة البقرة [2] قوله تعالى: ﴿ **يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما** ﴾ ومن المنافع التي كان يحس بها العرب لشربهم الخمر الكرم والشجاعة يقول مثلاً قيس بن الخطيم الشاعر الأوسي الجاهلي [3]:

إذا ما اصطبحت أربعاً خط مئزري وأتبعت دلوي في العطاء رشاءها

نزل الكرم منزلة الدلو والإسراف فيه منزلة الرشاء الذي يلحق بالدلو يريد أن بلغ في السماح منتهاه يقال: أتبع الدلو رشاءها وأتبع الفرس لجامها إذا بذل آخر مجهوده. ويقول مثلاً حسان بن ثابت الشاعر الخزرجي الأنصاري رضي الله تعالى عنه مصوراً تجاربه القديمة مع الخمرة [4].

ونشربها فتتركنا ملوكاً وأسداً ما ينهنهنا اللقاء

فالخمر تجعلهم يحسون بالزهو والانتشاء وقت السلم وتحولهم أسوداً لا تنكص ساعة لقاء الأعداء.

وفي المرحلة التالية للتدرج في تحريم الخمر قيد القرآن الكريم شربها

---

(١) آية ٦٧.

(٢) آية ٢١٩.

(٣) الأغاني ٣ ـ ٧.

(٤) الديوان ص ٧٣ د. سيد حنفي وحسان بن ثابت شاعر الرسول د. سيد حنفي ص ١٧٠.

ببعض الأوقات، حينما نهاهم عن الاقتراب من الصلاة وهم سكارى حتى يعلموا ما يقولون. ولو تدبرنا توزيع الصلوات على اليوم والليلة وتوزيع أوقات الأعمال والراحة لتبينا أن الوقت الوحيد تقريباً الذي يستطيعون أن يحتسوا الخمرة فيه هو الليل الذي تقتص منه صلوات المغرب والعشاء والفجر إضافة إلى صلاة القيام جزءاً لا بأس به جاء في سورة النساء [1] قوله تعالى: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا** ﴾.

وحينما كانت الأنفس مستعدة لقبول التحريم القطعي للخمر نزل قوله تعالى من سورة المائدة [2]: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون. إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون؟** ﴾ فما كان جواب المؤمنين إلا أن قالوا انتهينا انتهينا، وسكبوا ما كان لديهم من خمرة حتى سالت بها طرقات المدينة بل إن من كان في فيه شيء مجه امتثالاً لأمر الله تعالى.

وهكذا تجلت حكمة التشريع الإسلامي التي نجحت في القضاء على هذه الرذيلة قضاء مبرماً. نقول هذا وكلنا يعلم فشل الولايات المتحدة في حرصها على تحريم الخمر رغم العقوبات التي بها توعدت والأموال التي لها رصدت والجهود التي بذلت وملايين الصفحات من الأوراق ـ بلغت من الملايين تسعة ـ التي سودت وكانت النتيجة معاكسة للهدف من العمل حتى اضطرت الحكومة بعد ثلاث عشرة سنة أن تعلن سنة ١٩٣٣ فشلها ورفعت الحظر الذي كانت قد أصدرت به قانوناً في ١٦ يناير ١٩١٩ م وينفذ من مطلع يناير ١٩٢٠ إن الشعب

---

(١) آية ٤٣.

(٢) آية ٩٠ ـ ٩١. انظر مثلاً دراسات إسلامية د. محمد عبد الله دراز ص ١٥٦ ومناهل العرفان ١ ـ ٩٤ والحلال والحرام في الإسلام د. يوسف القرضاوي ص ٦٩ ـ الطبعة السابعة.

الذي أصدر قانون تحريم الخمر هو الذي أعلن عجزه وأصدر قانوناً يبيح الخمرة مرة أخرى رغم علمه القطعي بضررها وخطرها لأنه شعب أعجز من أن يتحكم في هواه أو أن يضبط شهواته لعدم وجود القوة الإيمانية الكافية. إن الإسلام حينما حرم الخمرة سكبها المؤمنون المتقون حتى سالت بها أزقة المدينة. ولعل هذه المناسبة كانت أكبر مناسبة في التاريخ كله تراق فيها الخمرة في مكان واحد بعينه وزمان واحد بعينه. ومعروف أن أزقة المدينة وقتها كانت ضيقة حقاً. إن هذه الأزقة الضيقة التي سالت بها أكبر كمية من الخمر خلال العصور تسكب في زمان واحد تجعلنا نقف متعجبين أمام أنهار الجنة من الخمر المتدفقة باستمرار في كل أنحاء الجنة التي عرضها كعرض السموات والأرض قال الله تعالى: ﴿ **مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين** ﴾.

ولذة تأنيث لذ. وهو اللذيذ ومصدر نعت به»[1] ونود أن نقف عند لفظة الشاربين. إن هؤلاء المتقين في الدنيا هم وحدهم الذين يشربون من هذه الخمرة لأنهم في الحياة الدنيا قد امتثلوا أوامر الله تعالى وأوامر حبيبه ﷺ واجتنبوا النواهي ومن ذلك شرب الخمر لأنه ثبت عقلاً ونقلاً فسادها. أما خمر الآخرة فإنها شيء آخر لذا فإنها تعتبر واحداً من مظاهر الثواب الجزيل لهؤلاء المؤمنين المتقين. جاء في سورة الأعراف [2] قوله تعالى: ﴿ **ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين، الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون** ﴾.

إن خمر الدنيا بالإضافة إلى إفسادها لجسم الإنسان بحيث إن من العلماء

---

(١) البحر المحيط ٨ ـ ٧٩.

(٢) آية ٥٠، ٥١.

من قال: «إن كل قطرة بمثابة السم الذي ينهش الجسد وخاصة الكبد» هي سيئة الطعم والرائحة وقد يضاف إلى ذلك سوء الشكل أو قبح اللون خاصة إذا تمثلنا المواد التي تصنع منها آنذاك الخمرة. أما خمرة الآخرة فقد شاءت العناية الإلهية أن تتخلص من فساد الطبيعة والمفعول وأن تكون خالصة الحسن طبيعة ومفعولاً. وقد أشارت الآية الكريمة من سورة محمد إلى طعم خمر الآخرة اللذيذ. قال تعالى: ﴿ **وأنهار من خمر لذة للشاربين** ﴾.

وليس بخافٍ أن الخمر إنما تصنع أساساً للشرب، وأن أول آثار خمر الدنيا المباشرة يتصل بالطعم. حقاً إن رائحتها تسبق إلى الأنف ولكنَّ أقوى المتعلقات لشربها المرتبطة بطبيعتها هو الذوق والطعم وهذا الجانب هو الذي تقف عنده الآية الكريمة نافية عن خمر الآخرة أول منغصاتها أثناء التناول في الدنيا مثبتة اللذة الكاملة الخالصة التي لا تعرف بها خمر الدنيا بل خمر الآخرة.

وحينما ينفي عن خمر الآخرة أقرب المتعلقات غير الحسنة المرتبطة بطبيعتها من كونها كريهة الطعم والرائحة ففي ذلك نفي لكل المتعلقات الأخرى.

فبما أن طعمها لذيذ بعكس خمر الدنيا بل إنها هي تكاد تكون اللذة كل اللذة، فذلك معناه أن رائحتها لذيذة وشكلها أو لونها لذيذ. يقر كل ذلك العين ويشرح الصدر ويبهج النفس. يقول الزمخشري [1]: لذة تأنيث لذ. وهو اللذيذ. أو وصف بمصدر أي لأجل لذة الشاربين والمعنى ما هو إلا التلذذ الخالص ليس معه ذهاب عقل ولا خمار ولا صداع ولا آفة من آفات الخمر». وقد جاء في سورة الصافات وصف لطبيعة هذه الخمرة قال تعالى [2]: ﴿ **يطاف عليهم بكأس من معين. بيضاء لذة للشاربين** ﴾، وبما أن خمر الآخرة خالية من كل عيوب خمر الدنيا طبيعة، فينبغي أن تكون خالية من عيوب خمر الدنيا

---

(١) الكشاف ٣ ـ ١٣٠.

(٢) سورة الصافات ٤٥، ٤٦.

مفعولاً. وأول آثار خمر الدنيا قرباً الصداع الذي يعتري شاربها وفقدانه لعقله وخلعه لعذار الحياء وارتكابه كل قبيح حتى إذا تحول الشارب مدمناً بعد حين استعصى علاجه أو كاد على أمهر الأطباء وأنجع الأدوية حتى تقضي الخمر على ذلك المدمن أخيراً والعياذ بالله. وما أكثر الأمثلة الواقعية التي رأيناها رأي العين في تلك البلاد التي يشرب أهلها الخمرة. ونضرب الذكر صفحاً على بعض تلك النماذج وإن كانت مبكية مضحكة لأنها لها الكثير والكثير من النظائر والأشباه.

لقد نفى القرآن الكريم عن خمر الآخرة أبسط آثارها السيئة وفي ذلك نفي لما وراء ذلك. جاء في سورة الصافات عقب الآيتين السابقتين مباشرة ما ينفي أبسط هذه الآثار عن خمر الآخرة من اغتيال للعقول بالتغطية عليها وتحويل شاربها إلى سكران لا يعي ما يقول أو يفعل. قال تعالى [1] ﴿ **لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون** ﴾. جاء في الجلالين ﴿ **ولا هم ينزفون** ﴾ بفتح الزاي وكسرها من نزف الشارب وأنزف أي يسكرون بخلاف خمر الدنيا. وجاء في سورة الواقعة [2] قوله تعالى: ﴿ **يطوف عليهم ولدان مخلدون. بأكواب وأباريق وكأس من معين. لا يصدعون عنها ولا ينزفون** ﴾ جاء في الجلالين: « أي لا يحصل لهم منها صداع ولا ذهاب عقل بخلاف خمر الدنيا» وفي حديث مرفوع لم يعصرها الرجال بأقدامهم[3] ويقول القرطبي [4]: «أي لم تدنسها الأرجل ولم ترنقها [5] الأيدي كخمر الدنيا. فهي لذيذة الطعم طيبة الشرب لا يتكرهها الشاربون. يقال شراب لذ ولذيذ بمعنى».

ونتحول إلى آخر أنواع أنهار الجنة إنها أنهار العسل المصفى قال تعالى:

---

(١) سورة الصافات ٤٧.
(٢) الآيات ١٧ ـ ١٩.
(٣) تفسير ابن كثير ٤ ـ ١٧٦.
(٤) تفسير القرطبي ص ٦٠٥٧.
(٥) لم ترنقها. لم تكدرها.

﴿ وأنهار من عسل مصفى ﴾. لقد «بدىء من هذه الأنهار بالماء وهو الذي لا يستغنى عنه في المشروبات. ثم باللبن. إذ كان يجري مجرى المطعوم في كثير من أقوات العرب وغيرهم. ثم بالخمر لأنه إذا حصل الري والمطعوم تشوقت النفس إلى ما تتلذذ به. ثم بالعسل لأن فيه الشفاء في الدنيا مما يعرض من المشروب والمطعوم. فهو متأخر في الهيئة»[1].

ونحن نود أن ننظر إلى أنهار العسل المصفى من زاويتين: كونه يتدفق أنهاراً وكونه مصفى.

فيما يتصل بتدفق العسل في الجنة أنهاراً فالحقيقة أننا بصدد كميات ضخمة من العسل لا يكاد يتصورها عقل. وكيف لا يكون الأمر كذلك وإن في الجنة كما جاء في الحديث ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وفي الإمكان أن نعقد مقارنة تصويرية بين أنهار العسل في الجنة التي لا يعلم تعدادها والكميات التي تشتمل عليها إلا الله تعالى وبين كل ما هو موجود من العسل وقتاً من الأوقات. إنه رغم المجهودات التي تبذلها الدول والجماعات في سبيل إنتاج أكبر كمية من العسل ورغم محاولة تذليل كل العقبات في سبيل ذلك بما في ذلك تهيئة أنواع الأطعمة التي يحتاجها النحل فإنا نعتقد أن كل هذه الكميات لو جمعت في وادٍ صغير واحد لعجزت عن ملئه فضلاً عن أن تسيل منه إلى غيره أو تفيض إلى سواه.

وفيما يتعلق بصفاء العسل فالمعروف أنه يبذل الكثير من المجهود من أجل التوصل إلى تخليص العسل من أهم متعلقاته وأقوى متعلقاته وهو الشمع فتلك طبيعة عسل النحل كما شاءت العناية الإلهية. أما عسل الآخرة فإنه رغم تدفقه أنهاراً وهو صافٍ تماماً. إنه خلق صافياً دائماً بعيداً عن أدنى أنواع القذى والفساد. وكيف

---

(١) البحر المحيط ٨ ـ ٧٩.

لا يكون الأمر كذلك وإن أنهار اللبن الأكثر احتمال فساد بمنأى عن أدنى تغيير في الطبيعة التي أوجده الله تعالى عليها؟ وقد وصف العسل بأنه مصفى «أي من الشمع والقذى خلقه الله كذلك لم يطبخ على نار ولا دنسه النحل» [1] والغالب على العسل التذكير وهو مما يذكر ويؤنث [2].

أما وقد عرضت الآية الكريمة لأهم مشروبات الجنة الدالة على النعيم المقيم فما هو حظ المطعومات؟ إذ المعروف أن النعيم يبدأ بالطعام والشراب معاً؟ إن حظ المطعومات يجيء في قوله تعالى: ﴿ **ولهم فيها من كل الثمرات** ﴾ ولا يخفى أن تقديم المشروبات هنا ذكر بالحاجة الملحة لها، ابتداء في الدنيا، وخاصة الماء واللبن على التوالي. ولا يخفى كذلك أن الثمرات التي أشارت إليها الآية الكريمة قد وقر في الأنفس أنها وليدة الماء الذي عرفنا أنه يتدفق في الجنة أنهاراً لا تنقص ولا تغيض، والملاحظ أن الجزئية الكريمة ﴿ **ولهم فيها من كل الثمرات** ﴾ تشير إلى جزء واحد من المطعومات هي الفواكه التي يدل وجودها في حال النعيم ـ وهي ذاتها دليل الشبع والرّيّ والترف ـ على وجود كل ما يقع في مجال الضرورة قبلها مبتعداً عن الكمالي والترف مقترباً من الحاجي والضروري. إن لفظة الثمرات يمكن أن تعني إضافة إلى الفاكهة أنواع الثمرات التي تقترب من الطعام الرئيسي كالتمر مثلاً. ولكن بما أن الثمرات ترتبط في حال النعيم أساساً بالكمالي أعني الفاكهة، وبما أن تحقق الكمالي يعني ضمناً تحقق الضروري فلا مانع مطلقاً من القول: إن الثمرات يعني بها هنا الفاكهة في المقام الأول وهي من التفكه بمعنى التنعم والتلذذ ولا يتم شيء من ذلك إلا من باب الترف وبعد تحقق الضروري من الطعام.

والجزئية الكريمة تشير إلى كل أنواع الثمار. والمعروف أنه ليس ثمة مكان

---

(١) تفسير القرطبي ص ٦٠٥٧.

(٢) البحر المحيط ٨ ـ ٧٩.

واحد في الكرة الأرضية توجد فيه على مدار عام واحد كل ثمار الأرض. فهذا إبراهيم عليه السلام يدعو ربه جل وعلا للبلد الحرام بأن يرزقه من الثمرات وليس من كل الثمرات. جاء في سورة إبراهيم [1] قوله تعالى: ﴿ **ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون** ﴾.

ومن قدر له أن يسافر بعيداً عن الحرم في أي اتجاه يستطيع أن يقف بسهولة على هذه الحقيقة. فإذا عدنا إلى حديث الجزئية الكريمة عن ثمار الجنة تبين أنها تنصّ بصريح العبارة على أن من نصيب المتقين في كل مكان في الجنة وكل وقت كل أنواع الثمرات. إن الثمرات في الدنيا تخضع لظروف الزمان والمكان. وليس في الجنة بإرادة الله تعالى شيء من هذه الظروف. وقد قال عز من قائل في سورة إبراهيم [2]. ﴿ **يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار** ﴾.

وما الذي يرتبط بالطعام والشراب مما لا يكمل النعيم الحقيقي إلا به؟ إنه مغفرة الله تعالى لهؤلاء المتقين الذنوب التي ارتكبوها والتي تابوا إثرها توبة نصوحاً. قال تعالى: ﴿ **ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم** ﴾ وفيما يتصل بالجزئية التي تتعلق بالمغفرة نحن نود أن نقف عند كل من شقيها ﴿ **ومغفرة من ربهم** ﴾.

فيما يتصل بالمغفرة المعروف أنها تكون من الله تعالى بسبب ذنب ارتكبه عبده جل وعلا. لقد تفضل الله تعالى بأن غفر ذنب هذا المذنب. وأي مذنب هذا الذي تتحدث عنه الآية الكريمة والتي تشير إلى أنه جل وعلا قد غفر ذنبه؟

---

(١) آية ٣٧.

(٢) آية ٤٨.

إنه المؤمن المتقي أساساً. وكيف تسنى لهذا المذنب أن تشمله رحمة الله تعالى بأن يغفر ذنبه؟ تسنى له هذا بعد أن تاب إلى الله تعالى توبة نصوحاً. وهذه الحقائق تقتضينا أن نتحدث في أمرين:

أولهما: إن هؤلاء المؤمنين المتقين من الجائز أن يكونوا وقتاً من الأوقات قد ارتكبوا لمم الذنوب. فليس هؤلاء الذين غدوا أخيراً متقين حقاً. ملائكة ولا معصومين. **وثانيهما:** إن هؤلاء العباد يتوبون حالاً من لمم الذنب الذي ارتكبوا. ويتفضل رب العزة بقبول التوبة عن عباده والعفو عن السيئات. وإن كلاًّ من هذين الأمرين بحاجة إلى شيء من بسط القول.

إن ارتكاب هؤلاء المتقين وقتاً من الأوقات لمم الذنب هو أمر وارد فعلاً فليس هؤلاء ملائكة ولا أنبياء معصومين. إنهم أناس عاديون آمنوا بالله تعالى وبكل ما جاء عنه جل وعلا منتفعين من نعم الله تعالى عليهم وفي مقدمتها العقل والإرادة. العقل الذي يستطيع أن ينتهي دائماً وأبداً إلى أن الله تعالى واحد أحد معتمداً على آيات الله تعالى الموجودة في كل شيء في هذا الوجود والإرادة التي تستطيع أن تحملهم على تحمل تبعات فعل الطاعات واجتناب المعصيات بعد أن هداهم الله تعالى النجدين فعرفوا طريق الحق والنجاح الذي ينبغي أن يسيروا فيه وطريق الشر والإخفاق الذي ينبغي أن يتنكبوه. وفي أثناء رحلة العمر التي يصح أن تكون طويلة من الجائز أن يتورطوا بسبب إغواء الشيطان الرجيم والنفس الأمارة بالسوء في بعض لمم الذنب. وسرعان ما يعودون إلى بارئهم جل وعلا يتوبون إليه ويستغفرونه. وكما جاء في الحديث الذي رواه مسلم: لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها وقد أيس من راحلته فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده

فأخذ بخطامها[1]. ثم قال من شدة الفرح اللهم أنت عبدي وأنا ربك. أخطأ من شدة الفرح [2] قال عز من قائل [3]: ﴿ **قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم. وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون. واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون. أن تقول نفس يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين. أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين. أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين. بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين** ﴾.

وقال عز من قائل: [4] ﴿ **إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً. وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً** ﴾.

وهكذا يضرب هؤلاء المؤمنون المثل الأعلى في اليقظة والحذر وعدم الغفلة. إنهم أحرص على أن يكونوا بعيدين كل البعد عن لمم الذنوب فضلاً عن كبارها. وفيما لو فرض أن النعل قد زلت بهم لحظة من اللحظات التي تضعف فيها النفس عن امتثال الشرع وأمر الشرع الحنيف فترتكب اللمم من الذنوب فإنهم سرعان ما يتوبون إلى الله تعالى تائبين عابدين حامدين راكعين ساجدين. «قال العلماء: التوبة واجبة من كل ذنب فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمي فلها ثلاثة شروط: أحدها أن يقلع عن

---

(١) الخطام بكسر الخاء الحبل.
(٢) رياض الصالحين ص ١٢.
(٣) سورة الزمر ٥٣ ـ ٥٩.
(٤) سورة النساء ١٧ ـ ١٨.

المعصية والثاني أن يندم على فعلها والثالث أن يعزم أن لا يعود إليها أبداً. فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته. وإن كانت المعصية تتعلق بآدمي فشروطها أربعة: هذه الثلاثة وأن يبرأ من حق صاحبها. فإن كانت مالاً أو نحوه رده إليه وإن كان حد قذف ونحوه مكنه منه أو طلب عفوه وإن كان غيبة استحله منها. ويجب أن يتوب من جميع الذنوب فإن تاب من بعضها صحت توبته عند أهل الحق من ذلك الذنب، وبقي عليه الباقي. وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة على وجوب التوبة. قال الله تعالى [1]: ﴿ **وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون** ﴾ وقال تعالى [2] ﴿ **يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً** ﴾. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة. رواه البخاري» [3].

والجزئية الكريمة حينما تشير إلى مغفرة الله تعالى لعباده التائبين والذين عادوا بسبب التوبة كيوم ولدت الواحد منهم أمه وعملوا الصالحات التي هيأتهم بعد أن تفضل الله تعالى بقبولها لأن يصلوا إلى أعلى درجات التقوى وأن يضافوا إلى الله تعالى إضافة تشريف وتكريم [4] إنما تقرر أصلامها من أصول هذا الدين الذي رضيه الله تعالى لعباده، وميزة من مميزاته التي سبق أن حرفتها عن هذا الأصل الأديان المحرفة أو الممسوخة. إن رسول الإسلام يقرر أن الإنسان حينما يولد عبارة عن صفحة بيضاء نقية يمكن أن تزين بأحلى الرسوم ويخط فيها أجمل الخطوط والألوان يقول ﷺ: «ما من مولود يولد إلّا على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»[5] أما هذه الفطرة الطاهرة النقية البيضاء فإنها مستعدة

---

(١) سورة النور ٣١.

(٢) سورة التحريم ٨.

(٣) رياض الصالحين ص ١١.

(٤) كما جاء في صفة عباد الرحمن في سورة الفرقان.

(٥) تفسير ابن كثير: ٣:٤٣٢ وانظر ما كتب ابن كثير مثلاً عن الفطرة في سورة الروم.

بطبعها لأن تعبد الله تعالى وحده لا شريك له. وقد جاء في سورة الروم[1] قوله تعالى: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون. منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين. من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون﴾.

والفطرة التي يولد عليها الإنسان من متعلقاتها أن هذا المولود صفحته بيضاء نقية. إذ لا علاقة له مطلقاً بأي ذنب ارتكبه أي مخلوق آخر. ولو كان المرتكب أحد والديه السبب في وجوده في هذه الحياة بإذن الله تعالى يقول ﷺ: «من حجَّ فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»[2] والقرآن الكريم يقرر هذا المبدأ العادل في العديد من المواضع منها قوله تعالى في سورة النجم[3]:

﴿أفرأيت الذي تولى وأعطى قليلاً وأكدى. أعنده علم الغيب فهو يرى. أم لم ينبأ بما في صحف موسى. وإبراهيم الذي وفى. ألا تزر وازرة وزر أخرى. وأن ليس للإنسان إلا ما سعى. وأن سعيه سوف يرى. ثم يجزاه الجزاء الأوفى﴾.

وتبدو عظمة تقرير هذه الحقائق وإعادتها إلى أصولها الصحيحة التي كانت عليها وتبدو آثارها الكبيرة النفع الجليلة الخطر بشأن قوة الشخصية المسلمة، لأن المسلم منذ أن يعي يعرف أنه مسئول وحده عن كل ما يصدر عنه من خير أو شر قولاً أو فعلاً وأنه لا علاقة البتة بينه وبين كل ما صدر عن الآخرين من خير أو شر قولاً أو فعلاً، ويبدو الأمر على حقيقته من جلال الخطر حينما نتحول

(١) الآيات ٣٠ ـ ٣٢.
(٢) صحيح البخاري ٢ ـ ١٦٤.
(٣) الآيات ٢٣ ـ ٤١.

على سبيل المثال إلى المسيحية المحرّفة عن أصلها الصحيح والتي يشعر أتباعها حالياً بعقدة الذنب بسبب المعصية التي ارتكبها آدم عليه السلام أبو البشر حينما عصى الله تعالى وأكل من الشجرة. والملاحظ أن القوم يغفلون تماماً توبة آدم عليه السلام التي قبلها الله تعالى وغفر ذنبه فعاد آدم عليه السلام كأن لم يفعل من قبل شيئاً. جاء في سورة البقرة [1] قوله تعالى: ﴿ **فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم** ﴾ وجاء في سورة طه [2] قوله تعالى: ﴿ **فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى. ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى** ﴾. إن المسيحيين مصابون بعقدة الإحساس الملازم بالذنب الذي ارتكبه أبو البشر آدم عليه السلام. ومن الذي يتحمل عنهم متعلقات ذلك الذنب الذي ارتكبه آدم عليه السلام أبو البشر؟ إن الذي يتحمل ذلك عنهم عيسى ابن مريم عليه السلام! إن الإنسان لدى المسيحيين بطبعه وفطرته مذنب وإن الإنسان في الإسلام صفحة بيضاء نقية أساساً والإنسان في الإسلام مستعد بفطرته لأن يعبد الله تعالى وحده لا شريك له. وإذا كان الإسلام يرى أن الإنسان أساساً صفحة بيضاء نقية بينما المسيحيون يرون الإنسان أساساً وارثاً بطبعه لذنب ارتكبه أبو البشر آدم عليه السلام، وأن عيسى عليه السلام هو الذي يتحمل عن كل المسيحيين الذنب الذي لم يرتكبوه. وإذا كان الإسلام يقرر أن الله تعالى وحده لا شريك له هو الذي يغفر الذنوب. يقول القرآن الكريم ﴿ **ومن يغفر الذنوب إلا الله** ﴾[3] فإن رجال الدين المسيحي يرون أن في استطاعتهم أن يغفروا الذنوب. بل بلغ الأمر بهم للدرجة التي منحوا معها وقتاً من الأوقات صكوك الغفران. وباعوا أجزاءً من الجنة لمن رغب أن يدفع لهم من حطام الدنيا شيئاً ما. لقد نزل

---

(١) آية ٣٧.

(٢) آية ١٢١ - ١٢٢.

(٣) سورة آل عمران ١٣٥.

هؤلاء أنفسهم منزلة الشركاء الذين كان مشركو العرب يتخذونهم وسائط لتقرّبهم إلى الله تعالى. جاء في سورة الزمر[1] قوله تعالى: ﴿ **ألا لله الدين الخالص. والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى. إن الله يحكم بينهم فيما هم يختلفون. إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار** ﴾. . ويبدو شيء من عدم الاقتناع بمثل هذا العمل من قبل رجال الدين المسيحيين الذين يزعمون أنهم في مقدورهم أن يغفروا الذنوب من هذه التجربة التي مررنا بها في المركز الإسلامي بمدينة لندن حينما جاء قبيل صلاة الجمعة شخص يبدو أنه من إحدى الدول الشرقية وحديث عهد بالدخول في المسيحية. وقد كان في نفس هذا الشخص علامات استفهام عديدة من أهمها تعجبه من زعم القسس أن في دائرة اختصاصاتهم أن يغفروا الذنوب. وقد صرح لإمام المسجد بمشهد من عدد كبير من المصلين بأنه غير مقتنع بهذا العمل. وقد حمله على ذلك أن يعيد النظر في المسيحية بالكلية. ومن بين علامات التعجب التي طرحها في أثناء حديثه مخاطباً لنا نحن الحاضرين حينما قال: هب أني سرقت من جيب واحد منكم الآن مالاً، وذهبت بعد ذلك إلى القسيس فإنه يغفر لي هذه السرقة. أنا أسرقكم وهو يغفر لي - حسبما زعم - ذنبي! هل هذا أمر معقول أن أوذيك أنت وأن يغفر لي هو ذلك الذنب؟ وأبدى الرجل استعداده للدخول في الإسلام الذي اقتنع به وبخاصة رأيَ الإسلام في هذه المسألة من كونه جل وعلا وحده لا شريك له هو القادر إذا شاء على أن يغفر ذنب من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً. وأن الإنسان مسئول وحده عن كل ما صدر منه من خير أو شر وسيثاب يوم القيامة على فعل الخيرات وسيعاقب على فعل السيئات.

وإذا تجاوزنا المسيحية إلى الديانة الهندوكية مثلاً التي يؤمن أتباعها بتناسخ الأرواح تبينا أن عقدة الشعور بكون الإنسان بالفطرة مذنباً قد ملأت نفوسهم

---

(١) آية ٣.